

حكمتك على هذه الزوجة المسكينة حكّم الله عليك ؟

تقول : الحب والخيال والفن ، وتذهب في مذاهبها ؛ غير أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيد من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ولا حسبت نفسك منحوس الحظ محروماً ، ولا جهلت أن في داخل العين من كل ذى فنّ شيئاً خاصاً بالأحلام كيلا تعمى عينه عن الحقائق

الحب لفظ وهمي موضوع على أصداد مختلفة : على بركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خداع من النفس يضع كل ذكائه في المحبوب ، ويجعل كل بلاهته في الحب ، فلا يكون المحبوب عند محبه إلا شخماً خيالياً ذا سفة واحدة هي الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية في وجود تام الجمال ولا عيب فيه ، والناس من بعده موجودون في العيوب والمחסن

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصالح به ، فانما تقوم الحياة على الروح العملية التي تضع في كل شيء معناه الصحيح الثابت . فالحب على هذا شيء غير الزواج ، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يفهم هذا الحب على النحو الذي يجعله حباً لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابا هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدة الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله فيكون في حبه عاقلاً ينجنون لطايف ... ويترك العاطفة تدخل في التفكير وتضع فيه جمالها وتورثها وقوتها ؛ ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسمى لذاته الفكرية ، ويعرف بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يوليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ويصرفها ويبدع منها عمله الفني العجيب

وهذا الضرب من السمو لا يلفه إلا الفكر القوي الذي فاز على شهواته وكسحها وتحملها تنلى فيه غيلان الماء في البرجل ليخرج منها أطف مافيه ويحوّلها حركة في الروح تنشأ منها حياة هذه الماني الفنية ؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية ، إن

٤ - المشكلة

تمّة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاحب هذه المشكلة رجل أعور العقل يرى عقله من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصة في إشكالها ، ولوجد في ناحيتها الأخرى حظاً لنفسه قد أصابه ، ومذهباً في السلامة لم يخطئه ؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصح أشق الخلق لو رماه الله في الجهة التي أقنعه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثاني

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيت بها ، كانت هي التي أكرهت على الرضى بك ، وحملت على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صبياً ، وفيها مستدلاً ؛ ثم كانت هي تحب رجلاً غيرك ، وتصبو إليه ، وتفتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فاذا جلسوا عليك رأيتك البغيض المقيت ، ورأيتك الدميم الكربة ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتعد لها يدك فتحماسها تحاسبها المجذوم أو الأبرص ، وتكلمها فتختم برداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبها حباين من مشنقين ، وتتجسّب إليها فاذا أنت أسبح خلق الله عندها ، إذ تحاول في نذالة أن تحمل منها عمل حبيبها ، وتقبل عليها بوجهك قترام من تقدّر لها إياك واشتزازها منك وجه الذبابة مكبراً بفضاعة وشاعة في قدر صورة وجه الرجل ليتجاوز حد الفصح إلى حد الفثانة ، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حد اتقى إذا دما وجهك من وجهها ؟

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك الرجل الثاني لا المرأة الثانية ؟ ألسن الآن في رحمة من الله بك ، وفي نعمة كففت عنك مصيبة ، وفي موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترتب في

فالشأن في تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وغولتها إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه . وما من رجل قوى الرجولة إلا وأساساً ديانته وكرامته ؛ وما من ذي دين أو كرامة يقع في مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يُخيف عليها أو يُفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن المشورة ، بله أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيجانبها ويبالغ في إعانتها ويشق غيظه بإذلالها واحتقارها

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك في بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة في معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها ؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية في حل مشكلته إن تورط في مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكد ويعمل ويصبر على ما يمانيه من ذلك ؛ ومن كان عبداً لا يستزِل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كساحب للمشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يمشق غيرها ؛ وإنما الإنسان من أظهر في كل ذلك ونحو ذلك أثره الإنسان لا أثره الوحشي ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين في السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإزالتها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه

وإذا حل اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلها ، ولكنه حلٌ يجمله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً حتى ليرى الشرع في نظره إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التي خلقت له فيأمر بقطعهما .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشري كله ينزل منزلة الأب في مناصرتة لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها مادام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها في الضمير الإنساني الأكبر وإن خالف ضمير زوجها العدو الثائر الذي قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة في هذا الضمير الإنساني فهو أنها في هذا الوضع ليست

لم تضبط ما في داخلها أصح الضبط لم يكن في ظاهرها إلا أضعف عملها

ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة ، وهو في قوته يجمع بين كرامة هذه وقُدسية هذه لأن إحداها توازن الأخرى ، وتُعَدُّ لها في الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتُعسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي ***

والرجل الكاملُ المفكرُ التخيل إذا كان زوجاً وعشيقاً ، أو كان عاشقاً وزوج بغير من يهواها استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله الزوج ، وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جدد على هيئة واحدة ، غير أنه لا يفعل أن هذا هو سر من أسرار الابداع في التمثال إذ تلك هيئة استقرار الأسمى في سموه ؛ فإن الزوجة أمومة على قاعدتها وحياء على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهي معان شاردة لا تستقر وزائلة لا تثبت ، وفنها كله في أن تبقى حيث هي كما هي ، فجألاً يحيا كل يوم حياة جديدة مادامت فناً محضاً وما دام سرُّ أوثنتها في حجابها

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انتهكت له حجاب أوثنتها فبطل أن يكون فيها سر ، وعادت له غير من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحول في كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه ؛ فليس يصلح الحب أساساً للسعادة في الزواج ، بل أحتربه إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ، إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعين لهما درجة من درجة في الشغف والعصاة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فإن لم يكن الزوج في هذه الحالة رجلاً تام الرجولة — أفسدت الحياة عليه وعلى زوجته صبيانية روحه فالتبس في الزوجة ما لم يعد فيها ، فإذا انكشف له فراغها ذهب يلتصقه في غيرها وكان بلاء عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ، إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسي ؛ وما المرأة إلا حمها وشعورها (١)

(١) هناك من بعض الحكمة في أن الإسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد إذ لا يعرف الدين الإسلامي من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما بينهما ، وتضان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى حكمة أخرى في اللقطة الأولى من المشكلة

حبيبة ولكنها شحاذة رجال

لستنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلجج بها من الوقعة التي في قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم الماقل غير ألم المجنون وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الانساني يكاد يكون آلة مخلوقة مع الانسان لاصلاح ديناه أو إفسادها ، فالحكيم من عرف كيف يقصر بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيد فيه ، ولا يخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي أو أصاب ما لا يشتهي استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يوجد الغنى من ذلك المحبوب المدموم ، أو يوجد الصبر عن هذا الوجود المكروه ، فتوازن الأحوال في نفسه وتمتدل المعاني على فكره وقلبه . وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن^(١) وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسل اليه المعاني بصورة فيها القوضى والنقص والألم ، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية

يمشق الرجل العاني المتزوج ، فإذا الساعة التي أو بقتنه في المشكلة قد جاءت منه بمطريقة حلها ؛ فاما ضرب امرأته بالطلاق ، وإما أهلها بأخذ الضرة عليها ، وإما عذبتها بالخيانة والفجور ، لأن بعض العيب من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عيب الطبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعها الضخمة على الانسانية من هذه النفوس الفارغة . . . وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا التامى ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتول دونها مادام مطلقاً على بينه وبينها . والحقيقة هنا حقيقة هو والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يهجز عن نيل هذه المنفعة

ثم يمشق الرجل الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجه آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة ، فإن فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة ، وفيها (١) استوفينا هذه المعاني في كثير مما كتبنا وبضها في مقالات (الجلال البائس)

مع ذلك عيب الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشد الحيد بينها وبين الفرزة . وبهذا كله تنقلب المشكلة الى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ولا يمين عليها إلا الصبر ، ولا يفلح في سياستها إلا تحمل آلامها ، فإذا رزق الماشق صبراً وقوة على الاحتمال فقد هان الباقي ؛ وتيسرت لذة الظفر الحامس ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ، فإن في نفس الانسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة ، وموقع أرفع من موقع ، وأثر أبعج من أثر ؛ وألذ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بعمانيها ، وأكرم منها على نفسه كرامة نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن ، لم يبق لحبيبة الحب كبير معنى ولا عظيم أثر ، ويتوغل الماشق في حبه وقد لبسته حالة أخرى كما يكظم الرجل الحليم على القيظ ، فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يتناظر ولا يغضب . والبطل الشديد البأس لا ينبغي إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقى الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولمعمرى إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه أو يبطل حاجة من حاجاتها فإذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس ؟

وما عقّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيته إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوة المصاحبة فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها ... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ، وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لراها ، ولو تعودها لأحبها انه من وهمه كالجواد الذي يشمر بالقيادة في عنقه ؛ فشموره بمعنى الحب وإن كان معنى ضئيلاً عطّل فيه كل معاني قوته ، وإن كانت معاني كثيرة . وما أقدر ذلك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير في أعناق الناس . ا .

وقد بقي أن نذكر توفيقاً للقائدة أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت لحولته من الرجال فيدلس على نفسه بمنزل هذا الحب ويبالغ فيه ويتجزم على زوجته السكينة التي ابتليت به ،